

خطاب التجربة الذاتية في كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي (ق 5 هـ)

بين الوظيفة التواصليّة والوظيفة الأدبيّة/ نورة قريع

خطاب التجربة الذاتية في كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي (ق 5 هـ)

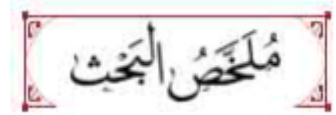
بين الوظيفة التواصليّة والوظيفة الأدبيّة

The discourse of self-experience in The Dove's Neck-Ring about Love and Lovers
by Hazm Al-Andalusi (5th century AH)
between its communicative and literary functions

نورة قريع*

المعهد العالي للغات بتونس (تونس)، grayaanoura@yahoo.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025 / 12 / 15	2025 / 11 / 14	2025 / 11 / 01



يتناول المقال موضوع خطاب التجربة الذاتية في تجاذبه بين الوظيفة التواصليّة متمثلة في الجوانب المعرفيّة التعليميّة الإقناعيّة من الخطاب والوظيفة الأدبية الإبداعية التي تمنح الحديث عن النفس أبعادا إضافية وعمقا دلاليًا مخصوصا. تضمّن المقال مقدمة تُعرّف بمفهوم التجربة الذاتية باعتبارها موضوعا لأنماط من الخطاب أدبية وغير أدبية.

وانتقلنا بعد ذلك إلى طرح إشكالية توظيف التجربة الذاتية في الأدب العربي القديم وقيمة هذا التوظيف وكيفية قراءته ومن ثم التنويه بطرافة هذا العنصر في كتاب طوق الحمامة الذي يجمع بين خاصيات الخطاب التعليمي القائم على منهج علمي وصفي تحليلي، من جهة، والخطاب الأدبي المعتمد على أفانين القول والتعبير من جهة أخرى.

أما القسم الثاني من المقال فقد قسمناه إلى عنصرين كبيرين فيهما تتبّعنا المظاهر الدالة على الوظيفتين المتداخلتين في خطاب التجربة الذاتية عند ابن حزم الأندلسي واستخرجنا أبرز الأمثلة المبيّنة لهما وحلّلنا الأبعاد المتعدّدة المتلبّسة بكل منهما.

الكلمات المفتاحية: خطاب، وظائف، تجربة ذاتية، تواصل، أدب، سيرة ذاتية.

* الاسم واللقب والبريد الإلكتروني: نورة قريع grayaanoura@yahoo.fr

Abstract

The article addresses the topic of the discourse of personal experience in its tension between the communicative function, represented in the educational and persuasive aspects of the discourse, and the creative literary function, which gives the speech about the Self additional dimensions and a special semantic depth. The article includes an introduction that defines the concept of personal experience as a subject for both literary and non-literary discourse.

We then move on to discuss the issue of employing personal experience in ancient Arabic literature, the value of this employment, how to interpret it, and then highlight the ingenuity of this element in the book *Tawq al-Hamama*, which combines the characteristics of educational discourse based on a scientific, descriptive, and analytical approach on the one hand, and literary discourse based on rhetoric and expression, on the other hand.

The rest of the article is divided into two main sections, in which we trace the manifestations of the two intertwined functions in Ibn Hazm al-Andalus's discourse on personal experience, extract the most prominent examples illustrating them, and analyze the multiple dimensions inherent in each.

keywords: Speech, Functions, Personal Experience, Communication, Literature, Autobiography.

1. مقدمة:

يتنزل هذا المقال في إطار التعمق في أنماط الخطاب وخصوصياتها، وطرح الإشكالات المتعلقة ببعض تلك الأنماط.

ونخص بالذكر منها الخطاب السير-ذاتي، أو "الحديث عن النفس..." بعبارة صالح بن رمضان، وهو خطاب يطرح عدّة إشكالات مرّدها تداخل الذات بالموضوع، والتباس المقاصد بين الإفصاح عن الذات ومكنوناتها والتعريف بتجربتها للمتلقّي، ومقصد الانشاء الفني الأدبي.

فمن جهة، لا ينفك الخطاب السير-ذاتي عن الخطاب السردي عامة وهو خطاب إذا ارتبط بحياة الكاتب

اقتضى بالضرورة حضور مغزى الاعتبار "وعُدّ هذا المغزى دافعا من الدوافع الأساسية للتحدّث عن النفس"¹ وتتأكد الوظيفة التواصليّة لهذا الخطاب باعتبار السردية "مقوّمًا أساسيًا من مقوّمات التّواصل والتخاطب."² وهذا الترابط بين مستوى الإنشاء السردى والتواصل يفترض حضور البعدين متوازيين أو متعاضدين في خطاب التجربة الذاتية. فمن مظاهر الوظيفة التواصليّة في هذا النمط من الخطاب إدراج الكاتب لأفكاره وتصوّراته مقترنة بسلوكه وأعماله ذلك أنّ جانبا كبيرا من السيرة الذاتية "يقوم على التّفكّر والتأمّل من جهة، وعلى السلوك والعمل من جهة أخرى ولكّتها إلى جانب هذا وذاك فنّ أدبيّ جوهره التّواصل اللّغوي."³

ومن جهة أخرى فإن قيمة الخطاب الذاتي أو خطاب التجربة الذاتية، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن ينحصر في وظيفته التّبليغيّة الحجاجيّة التعليميّة إذ هو مندرج ضمن الأنماط الأدبيّة، على ما تطرحه طبيعة مضمونه من اشكالات في خصوص مدى أدبيّته وخضوعه لمنطق الواقع واندرج هذا النمط عند الغربيين في تدارسهم له ضمن أنواع التّعرية والبوح المؤدبين إلى العلاج النفسي والتنفيس عن الذات.

وغلبت على الدّراسات الحديثة الرّؤية الأدبيّة عند تناول هذا النّمط وهي رؤية تضع في الاعتبار دور القارئ في الحكم على الأثر وما قيل فيه بقطع النظر على مقاصد المؤلّفين المعلّنة.

وفي إطار ثنائيّة الظاهر والباطن أو المعلن والمضمر وُضع خطاب الحديث عن النفس والسيرة الذاتية بين قُطبين يتحكّم في أحدهما الكاتب. إذ أنّ السيرة الذاتية هي ضرب من ضروب استرجاع الذكريات الماضية و"إعادة بناء عالم الحياة الماضية في خطاب أدبي".⁴

أما القطب الثاني فيتحكّم فيه القارئ ذلك أنّ الحديث عن النفس إذا ورد متفرّقا فإنّه يعبر عن نظرة جزئية وعن تصور للأنا محدود بحدود مقاصد الكتاب أمّا منظور القارئ فهو يختلف عن منظور الكاتب تمام الاختلاف لأنّه يمكن أن يجمع بين نصوص مختلفة ويؤلّف منها سيرة كاملة.

وانطلاقاً من هذه الرّؤية سيتجلّى الجانب الأدبي الإنشائي للنص السيري سواء كان كاملاً أو جزئياً ذلك أنّ "الحديث عن النفس بضمير المتكلم يمكن أن يكون سرداً لأحداث واقعيّة أو تعبيراً عن مواقف حقيقيّة (..) ولكنه يمكن أن يكون كذلك من قبيل الإيهام بالواقع فالمعطيات التي يقدمها الكاتب ليست بالضرورة معطيات تاريخيّة، ومثل الشّخصية الأدبية التي يتحدّث عنها الكاتب كمثال الشّخصية في الرواية التاريخيّة".⁵

وفي إطار هذا التجاذب بين القيمة الفنيّة والقيمة التعلّيمية الحجاجيّة للخطاب المتعلّق بالتجربة الذاتية يتنزّل هذا البحث مُتخذاً من كتاب طوق الحمامة نموذجاً. ويكتسب هذا النّمط من الخطاب في الكتاب المذكور تعقيداً إضافياً بسبب اندراجه ضمن خطاب آخر غير أدبي في أصله، وعدم اختصاص الجانب الدّاتي بخطاب مستقل بذاته. فالكاتب لم يقصد منذ البداية استعراض سيرة حياته أو جزء مُمتد منها ، كما أنه لم يقدم كل أفكاره ورؤاه في الحياة بل سخّر تجربته الذاتية للإفادة في موضوع مُعيّن له به علاقة وهو موضوع الحُبّ و مستبعاته. فضلاً عن اندراج الأثر المدروس ضمن الأدب القديم الذي لم يكن الحديث عن النفس واستعراض سيرتها سائداً فيه فلم تتوضح سننه عندهم ولا قوانينه.

فأين يمكن أن ندرج هذا النمط من خطابه؟ وما منزلته من أنماط الخطاب وما وظائفه على الحقيقة؟

2. جدليّة التواصليّ والأدبيّ في خطاب التجربة الذاتية عند ابن حزم الأندلسي :

أكّد ابن حزم الأندلسي في مقدمة كتابه أنّه رمى من خلاله إلى تأليف بحث واقعي في موضوع الحُبّ وأنه لن يَحيد عن الموضوعيّة والحياد في تناوله لهذا الموضوع: "إنّما اقتصر في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها".

وفي هذا الإطار أتبع منهجاً حاول من خلاله تحقيق الموضوعيّة التي ادّعاها وذلك بالمرآحة بين النظري والتطبيقي، فضمّن كل فصل من فصول الكتاب شواهد من صميم الواقع، أغلبها أخبار يروي من خلالها تجارب إنسانيّة شهدها، أو عاشها هو نفسه وكان القصد المعلن من هذه الأخبار والآراء تأكيد ما ورد نظرياً في الكتاب وإقناع القارئ بالحقائق والمعطيات التي قدمها في عرض كتابه، وفي هذه الحالة فإنّ تقديم الكاتب تجربته الذاتية برهاناً على أقواله إنّما كان سبيلاً من سبل الحجاج والإقناع التزم فيها "بأن تكون أصول دراسته للحُبّ نابعة من صميم نفسه تتبّع نزواتها وحركاتها مُستخرجة من حوادث حياته المرتسمة على مُخيّلتها أو المُندرجة في ذاكرته".⁶

وذلك ل"إدراك حقيقة الحال وبلورة صورة الإنسان في مجتمعه الأندلسي، كمظهر حضاري تربوي وخلفية اجتماعيّة، يجدر تبنيها وإبرازها بمجهر الواقعيّة وبحسب الموضوعيّة الحياتيّة".⁷ إلا أننا إذا تجاوزنا ما صرّح به المؤلّف حول منهجه ومقصده من تأليف الكتاب، وجدنا للخطاب خصائص عديدة تُبعده عن تلك الموضوعيّة المزعومة وتُكسب الكتاب ثوب الأثر الأدبي بحضور مُقومات الخطاب الذاتي والرؤية الأحاديّة للموضوع والبعد الجمالي الفنيّ في الكتابة.

وتتجلى الخاصيّة الأدبيّة للخطاب في تجاوزه لوظائف التّبلغ والإقناع نحو وظائف التّعبير والتّأثير والإمتاع وهو ما يحقق الجانب التّخييلي في الخطاب إذ تتحول الوقائع والشّخصيات والفضاءات إلى عوالم يبنمها الخطاب بناءً فنيّاً بقطع النّظر عن مطابقتها للواقع الحقيقي. ذلك أنّ الملفوظ في الكتابة عن الذات "رغم أنّه يُفترض فيه أن يكون نائبا عن تصورات واقعيّة وموجودات حقيقيّة يرمز إليها بالأفاظه فإنه في واقع الأمر لا يحقق من خلال هذه الفرضيّة سوى ضرب من الإيهام بالواقع لا غير".⁸

وبذلك يقف التّحدث عن التجربة الذاتية بين قيمتين متكاملتين مُتعاضدتين:

- القيمة المعرفية التواصليّة المتمثلة في نقل خبرة إنسانيّة إلى الآخر

- القيمة الفنيّة الإبداعيّة المتمثلة في خلق أثر فنيّ قابل للقراءة والتأويل من خلال عوالمه المحكومة برؤية

الكاتب والزّوايا التي تقدمها من خلالها.

3. تجلّيات خطاب التجربة الذاتية في كتاب طوق الحمامة :

تمثّلت التجربة الذاتية في كتاب طوق الحمامة في مظهرين أساسيين:

1.3. سرد سيري لوقائع عاشها الكاتب:

وتتمثل في سرد وقائع حصلت للكاتب في حياته ويمكن تقسيمها إلى صنفين من الوقائع:

- وقائع تتعلق بتجارب الكاتب العشقية

- وقائع متعلقة بتجارب إنسانيّة أخرى خاصّة وأغلبها تخصّ الصداقة.

ففي النّوع الأوّل نذكر على سبيل المثال:

- قصّته مع الجارية التي أحبّها منذ الصّبا ثمّ افترقا ولقاه بها بعد سنوات.⁹

- قصّته مع الجارية التي نام في بيتها والصّراع النّفسي الذي عاشه بسبب ذلك.¹⁰

وغيرها من الأخبار القصصية التي تفاوتت أحجامها، فبعضها قصير مختزل وبعضها مُطوّل مُفصّل.

ومن النّوع الثاني نذكر على سبيل المثال:

- قصّته مع صديقه الذي هجره وتأثر بكلام الواشي.¹¹

- قصّته مع الصّديقين اللذين تخلّفا عن زيارته عند مرضه.¹²

2.3. مقاطع بوحية وفخريّة تضمّنت وصف الكاتب لأخلاقه ومبادئه أو بثّه شكواه من أمر ما يؤلمه:

من ذلك مثلا تعبيره عن تعجبه من "كلّ من يدّعي أنّه يحبّ من نظرة واحدة." وحديثه عن تجربته الخاصة في هذا المجال.¹³ ومن أمثلة الشكوى والتذمّر والبوح ما ورد في باب البين من شكوى و بوح يتعلّق بمعاناة الكاتب بسبب فراق الأحبة.¹⁴

4. الوظيفة التواصلية وجوه تجليها:

مثّلت المقاطع التي تحدّث فيها الكاتب عن نفسه جزءا من منهجه الحجاجي القائم على ربط الفكرة بالحجة والبرهان الملموس الدالّ عليها.

وظف ابن حزم تجربته الذاتية لتعميق الموضوع المتحدّث عنه في كتابه وإفادة القارئ في شأنه ولكنّه كذلك قدم للباحثين مادة معرفية هامة يمكن استثمارها في مجالات معرفية مختلفة.

والوظيفة التواصلية هي في الحقيقة متداخلة مع الوظيفة التعبيرية المقصودة لذاتها، ذلك أن الأدب هو خطاب تواصلية كذلك ولكن الفصل هنا بين الوظيفتين هو منهجيّ خالص. و للوظيفة التواصلية في طوق الحمامة مظهران أساسيان:

1.4. الوظيفة المعرفية التعليمية:

إنّ إدراج التجربة الذاتية في مؤلف يدّعي الاختصاص في موضوع معيّن، يقتضي إسهام خطاب التجربة الذاتية أو التحدّث عن النفس في إثراء معارف المتلقّي المباشر والقارئ للأثر عموما. وهو ما تحقق في طوق الحمامة فقد كان هذا الأثر مُوجّها إلى صديق ما حدّد للكاتب موضوعه وطلب منه التّأليف فيه وإفادته من تجربته وخبرته الحياتية والثقافية. وقد اقترن هذا الوجه من الوجوه بعلامات لفظية متواترة في النص وفق نظام مخصوص وتمثّلت في مضامين معينة ودلالات محمولة على فهم القارئ ومدى إفادته من الخطاب.

فأمّا العلامات المؤشّرة على الوظيفة التواصلية المعرفية التعليمية فتمثّلت خاصّة في ورود المقاطع الخاصة بسرد أحداث من حياة الكاتب أو تعبيره عن آرائه ومواقفه مسبوقه بما يدلّ على ذات المُخاطَب ويضعه في الاعتبار.

فإذا كانت التجربة المُعبّر عنها متّصلة اتّصالا مباشرا بالموضوع الرئيسي للكتاب، فإن الكاتب يشير إلى ذلك في بداية كلامه بعبارة "وعنيّ أُخبرك." أو يستعمل عبارة تربط اللاحق بالسابق من الكلام والعام بالخاص كقوله مثلا للربط مع ما سبق "وقد رأينا من عرض هذا كثيرا، وعنيّ أُخبرك أنّي أحد من دُهي بهذه الفادحة"¹⁵...

وأما إذا كان حديثه عن ذاته استطرادا وخروجا عن الموضوع فإنّه ينبّه المتلقّي إلى ذلك مثل قوله "ومما يشبه ما نحن فيه وإن كان ليس منه، أنّ رجلا من إخواني كنت أحلّته من نفسي محلّها"¹⁶...

ومن ذلك تأكيد الكاتب في خاتمة رسالته على الغاية من التّأليف متمثّلة في إيصال المضامين وإمتاع المُخاطَب بها: "هنا أعزّك الله انتمي ما تدكّرته إيجابا لك وتقمّنا لمسرتك ووقوفنا عند أمرك."¹⁷

و أمّا تجليات الوظيفة المعرفية التعليمية في خطاب التجربة الذاتية فنعتمد في استخلاصها على مبدأ أن الخطاب مهما كان نوعه لا يمكن أن يؤدّي رسالة واحدة ووظيفة بعينها دون سواها فإبراز وظيفة معيّنة هو من باب التّدقيق والتّركيز على جانب محدّد وليس حصرا للخطاب في تلك الوظيفة بالذات.

وقد تبيّنّا لخطاب التجربة الذاتية في طوق الحمامة بعض الوجوه المُمثّلة للوظيفة المعرفيّة التعليميّة ونقصدها بها تلك الوجوه التي يمكن إفادة القارئ منها كما يمكن أن تمثّل مجالات للدرّس والتأمّل من قبيل المعارف المختلفة المتّصلة بالثقافة والمجتمع والسلوك البشري. وتعكس الجانب النّفعي المعرفي من الخطاب بتوفير جملة من المعطيات الموضوعيّة التي يمكن الاستفادة منها معرفيًا. وقد وقفنا على وجهين ممثّلين لهذا الجانب التواصلي وهما:

• المعرفة المستفادة من الخبرة الذاتية بالحياة:

ونقصدها بها تلك المعرفة التي يحددها الكاتب ويربطها صراحة بتجربته الخاصة ويكشف للمتلقّي وجه العبرة والفائدة منها.

وقد مثّلت خبرة الكاتب وتعدّد تجاربه الحياتية مصدر إفادة للمُتلقي. ووعي الكاتب بهذا الجانب النّفعي لتجربته الحياتيّة الخاصّة تجلّى من خلال المقاطع التي ألحقها الكاتب بالقصص التي عاشها وهي مقاطع علّق بها على تلك القصص فربط مواقفه وآراءه بتجربته في مجال الحُبّ والعلاقات الإنسانيّة، كما تجلّى هذا الجانب من خلال إبراز الكاتب لخصاله الحميدة وفخره بنفسه وتقديم ذاته نموذجاً إنسانياً يُقتدي به.

فمن أمثلة ذلك فيما يتعلق بقصص حياته الخاصّة وعلاقاته قصته مع الجارية التي أحبّها في صباه ثمّ سلاها بعد مرور سنوات عديدة أثّرت في جمالها وغيّرت محاسنها، وقد ختم الكاتب سرده لهذه القصة بالعبرة المستقاة منها متمثلة في عدم لوم مَنْ كانت حالته كحالة الكاتب مع تلك المرأة يقول: "وهذا الوجه من أسباب السُّلُو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير مَلوم إذا لم يقع تَبَّتْ يوجب الوفاء ولا عهد يقتضي المحافظة."¹⁸ و قوله في أثناء سرده لأحداث القصة نفسها "وإنّما النِّساء رياحين ، متى لم تُتعاهد نُقِصت، و بُنيّةً متى لم تُهْتَبَل استُهدمت ..."¹⁹ ودلّت مثل هذه التعقيبات على تحويل الكاتب تجربته الذاتية من مجال الخصوصية المغلق إلى المجال العام ومن المعرفة الذاتية إلى الحكمة الانسانية الشاملة للجميع.

أمّا الخطاب الذاتي الكاشف عن آرائه الخاصّة المستمدّة من تجربته وتقديم نفسه نموذجاً ومثالاً يُقتدى به فنراه غالباً مُقرّناً بتجربته الذاتية مُستخلصاً منها من ذلك مثلاً تعجّبه من بعض الفئات كقوله عمّن يعشق من أول نظرة: "وإنّي لأطيلُ العَجَبَ مِنْ كُلِّ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ يُحِبُّ مِنْ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ (..) وما لَصِقَ بِأَخْشَائِي حُبُّ قَطُّ إِلَّا مَعَ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ وَبَعْدَ مُلَازِمَةِ الشَّخْصِ لِي دَهْرًا فَمَا نَسِيتُ وَدًّا لِي قَطُّ."²⁰

أو قوله في "باب الوصل": "وعَيَّي أَخْبَرَكُ أَيَّ مَا رَوَيْتُ قَطُّ مِنْ مَاءِ الْوَصْلِ وَلَا زَادَنِي إِلَّا ظَمًا (..) ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمّةٍ ولا رَهَقَتْنِي فِتْرَةٌ..."²¹ وفي مثل هذه الأمثلة تكون الحكمة أو العبرة المعبر عنها إجمالاً سابقة للإشارة إلى التجربة الحياتية المُمثّلة للمغزى المستفاد. وفي هذه الحالة الثانية تتحول تجربة الكاتب الشخصية إلى مثال ونموذج يخرج الاستنتاج العام من التجريد إلى التجسيد ومن النظري إلى التطبيقي.

وتجلّت صورة الكاتب في عدة مقاطع خصّصها لإبداء آرائه ومبادئه المتعلقة بموضوع الحب مثاليّة نموذجيّة فحرص في عدّة مواطن على استعراض مناقبه وخصاله في خطاب فخريّ سخّره الكاتب لتميرير رسالة أخلاقيّة تكشف مقوّمات الفرد "المثالي" أخلاقاً ومبادئ.

من ذلك حديثه عن صفة الوفاء المتأصّلة في طبعه قائلاً: "ولقد منحني الله عزّ وجلّ الوفاء لكل من نَمَتُهُ إِلَيَّ بِلُقِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَوَهَبَنِي مِنَ الْمَحَافِظَةِ لِمَنْ يَتَنَعَّمُ مِنِّي وَلَوْ بِمُحَادَثَةِ سَاعَةٍ حَظًّا (..) وما في شيء أثقل عليّ من الغدر وبالوفاء أفتخرُ..."²²

ومنما فخره بنزاهته وعقته في قوله: "والله يعلم وكفّ به عليّما ، أنّي بريء السّاحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقيّ الحُجرة. وإنّي أقسم بالله أجلّ الأقسام أنّي ما حللت مئزري على فرج حرام قطّ، ولا يُحاسِبُنِي اللهُ بكبيره الزنا منذ عقلتُ إلى يومي هذا."²³ وقيمة هذا المسلك توعويّة تربويّة إذ يكتسب الخطاب مصداقية إضافية بارتكازه على التجربة الذاتية للمتكلّم وعلى خبرة الكاتب في الحياة.

• المعرفة المستفادة ضمّنيا من المعطيات المتعلقة بتجربة الكاتب الذاتية:

ونقصد بها تلك المعرفة التي يمكن للمتلقّي أن يستفيد بها دون توجيه من الكاتب أو تحديد لوجه الاستفادة منها إذ أنّ كلّ المقاطع النصّية التي سرد فيها الكاتب جزءاً من سيرته الذاتية أو أبدى من خلالها مواقفه ومشاعره يمكن أن تمثّل قاعدة لكل من يروم البحث والتأمّل في مجالات معرفيّة مختلفة منها على سبيل الذّكر لا الحصر:

- مجال النّفس البشريّة و طباعها وسلوكها: فكل وضع عاشه الكاتب يُبرز جانباً من الجوانب النّفسية للإنسان عموماً من ذلك الصّراع النّفسي بين الرّغبة والقيود الدينيّة والاجتماعيّة كما نراها في قصّته مع الجارية التي نام في بيتها²⁴. و من أمثلة هذا الضّرب في المعرفة المُستفادة من تجارب الكاتب الذاتية كذلك ما نجده في خاتمة قصّته مع الجارية التي أحبّها ثم سلّأها في شأن طبيعة المرأة وضرورة العناية بنفسها: "إنّ النّساء رياحين، متى لم تُتعاهد نُقصت، و بنيةً متى لم تُهتبل استهدمت."²⁵ و وجوه الإفادة المعرفيّة لا تنحصر فيما أعلنه الكاتب وصرّح به من العبر المُستقاة من قصص حياته وإنّما تُستفاد من تلك النّصوص بتفكيك عناصرها واستقراء شخصيّاتها وإخضاعها للدرس والتّحليل وهو ما دعا الكثيرين إلى اعتمادها في دراسة النّماذج الاجتماعيّة (صورة المرأة في المجتمع الأندلسي مثلاً).²⁶

- مجال التاريخ والجغرافيا : وفي هذا الإطار يندرج تشبيه بعض الباحثين (منهم صالح بن رمضان كما سبق ذكره في مقدّمة هذا البحث) السيرة الذاتية بالرواية التاريخيّة حيث يتمّاز المعطى التاريخي بالمُعطى الإنشائي ولذلك نجد في سياق سيرة الكاتب الذاتية تحديداً تاريخيّة دقيقة تتعلّق بالأحداث التي عاشها وكان طرفاً من أطرافها كما هو الحال في قصّة سجنه ثم خروجه من السجن ولجوئه إلى أحد أصدقاء أبيه، وكذلك نجده في قصّته مع الجارية التي ألفها في صباه ثم انقطعت عنه أخبارها يحدّد الفترة التي خرج فيها من قرطبة وتاريخ عودته إليها بعد

غياب ست سنوات يقول: "فخرجت من قرطبة، سنة أربع وأربعمئة وغابت عن بصري بعد تلك الرّؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ثم دخلت قرطبة سنة تسع وأربعمئة..."²⁷

ويمكن أن نضيف إلى المعطيات التاريخيّة المعطيات الجغرافيّة المنتشرة في خطاب الكاتب عن نفسه وأحواله والأماكن التي أقام فيها كذكره للمدن بأسمائها والمنازل التي زارها وأصحابها...

2.4. الوظيفة التواصليّة الإقناعيّة والتأثيريّة:

ارتبطت الفقرات المتعلقة بذات الكاتب وتجاربه الخاصّة باستراتيجيّة تعتمد على البراهين والحجج المقنعة، والكاتب يستمد تلك البراهين من تجربته الذاتية وحياته الخاصّة فيكسبها مصداقيّة عند المتلقّي فضلا عن إثارة فضوله ومتابعته لتفاصيل مرويّاته.

أمّا الجانب التّأثيري فيرتبط برغبة الكاتب في كسب تعاطف المتلقّي وإثارة مشاعره، و يكون المسلك التّعبيري الوجداني هو السبيل لكسب تفاعل المتلقّي وتعاطفه مع ذات الكاتب.

ويتجلّى ذلك خاصّة من خلال مقاطع البوح والشكوى التي تتخلّل الكتاب، ويعبّر من خلالها الكاتب عن معاناته وآلامه و مُنغصات حياته، من باب البوح والتّنفيس عن الدّات وطلبًا لمشاركة القارئ له في تلك المعاناة.

من أمثلة هذا الوجه من وجوه التّواصل تعبير الكاتب عن مُعاناته من فراق الأحبّة و عدم تَمكُّنه من تجاوز هذه المحنة في قوله: "وما انتفَعْتُ بعيش ولا فارقي الإطراق والانغلاق من ذُقت طعم فراق الأحبّة وإنّه لشجى يعتادني و ولوع همّ ما ينفكُّ يطرقني وقد نَعَصْتُ تذكُّري ما مضى كلّ عيش أستأنفه واني لقتيل الهموم."²⁸

و من ذلك وصفه لما تركته في نفسه أخبار الخراب والدّمّار الذي أصاب قرطبة بعد رحيله عنها بقوله: "فأبكى عيني وأوجع قلبي وقرع صفاة كبدي وزاد في بلاء لبي."²⁹

و مثل هذه المقاطع ذات الطابع الوجداني تحقق وظيفة عاطفيّة قوامها: "استرضاء وجدان المتلقّي وعاطفته وإثارة انتباهه في أن."³⁰

نخلص من هذا القسم من بحثنا إلى أن الوظائف التواصليّة ملتبسة بخطاب التجربة الذاتية أو الحديث عن النّفس، تخلق انسجاما ومشاركة فعليّة مباشرة بين الكاتب والمتلقّي، على أنّ هذه الوظائف تزداد عمقا ودلالة بتداخلها مع الوظيفة الأدبيّة الفنيّة للمقاطع التي خصّصها الكاتب لتجربته الذاتية.

5. وجوه الأدبيّة في خطاب التجربة الذاتية:

إن أدبيّة الخطاب لا تتعارض مع صفته التواصليّة بل إنها فرع من فروع التّواصل المخصوصة بطرق وآليات تتجاوز مسالك القول العادي وتخرج به إلى مجال الفنّ والإبداع.

و نتملّس هذه الوظيفة في الخطاب السير-ذاتي من كتاب طوق الحمامة في الجوانب التالية:

1.5. في إنشائيّة النّص السّردي السير- ذاتي:

لئن اعتمدت المقاطع السردية السير ذاتية لدعم موضوع الكتاب وإثرائه وتعميقه بشهادات حيّة فإنّ تميّزها بحبكة متكاملة وبناء قصصي ذي دلالة فضلا عن الأساليب التي اعتمدها الكاتب لا يمكن إلا أن يُبرز القيمة الفنيّة لهذه المقاطع ويعزّز الوظيفة الأدبية لخطاب التجربة الذاتية. وفي هذا الإطار يمكن أن نميّز بين نوعين من النصوص السردية السير ذاتية :

- النوع الأول، يتمثل في نصوص مختزلة يكاد الخطاب فيها يقتصر على الحد الأدنى من الملفوظات المؤدّية لمعنى القصة.

- النوع الثاني يتمثل في نصوص سردية مُطوّلة يتجلّى فيها أثر تصرّف الكاتب في المادة القصصية بنية وحكاية وخطابا.

ففي النوع الأول من القصص بُنيت الحكاية على حركة سردية واحدة يكون فيها التّحول سريعا من حال إلى حال، فتتكون لبنة لقصص ممكنة من ذلك قصة الكاتب مع صديق لم يذكر اسمه يقول عنه: "كثّر التّدخل بيبي وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان في وجهه وفي لَحْظِهِ".³¹

وقصّته مع صديق: " فَسَدْتُ نَيْتَهُ بَعْدَ وَكَيْدِ مَوَدَّةٍ لَا يُكْفَرُ مِثْلُهَا".³² وغيرها كثير، ورغم قصر هذه القصص وسرعة حكمها فقد استثمارها الكاتب لتكون ذريعة لقول الشّعْر، ومن ثم تعزيز الجانب الأدبيّ لخطابه.

أما النوع الثّاني من القصص المطوّلة فقد توفرت على جانب هام من المقومات القصصية بما في ذلك الخطاب السّردي وأساليبه وقد استمدّت هذه المقومات طابعها الأدبيّ من جملة من الخصائص لعل أهمها: - التوسّع في مسار الأحداث و تتبّعها وفق بُنية تقوم على التّحول من مقطع الهدوء والاستقرار إلى مقطع التوتّر والتدهور، ثم المزيد من التدهور.

وهذه البنية تتبّع سنّة أدبية أسّس لها مؤلفوا قصص العشق العذري حيث تتجلّى مأساوية هذه القصص من نهايتها التي لا ينفرج فيها التّأزم بل يصل إلى الحد الأقصى من التدهور دون أن يتمّ ما يصبو إليه العاشق من لقاء بمحبوبه أو الزواج منه...

ولنا على هذا النموذج ثلاثة أمثلة منها قصّة عشقه لجارية وافتها المنيّة في سن الشّباب جعلته غير قادر على تجاوز آثار فقدها إلى لحظة تأليف كتابه وهو ما أكده في قوله: "فوالله ما سلوت حتى الآن (..) وما طاب لي عيشٌ بعدها ولا نسيت ذكرها".³³

والمثال الثّاني نراه في قصته مع الفتاة التي أحبّها في فترة الصّبا ثم فرّقت بينهما الأيام ، وحين التقاها بعد سنوات وحدها قد تغيّر أكثر محاسنها وذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة.³⁴

وتميزت هذه القصّة بمأساويّتها ونهايتها المثيرة للشجن ، رغم أنّ الكاتب أعاد التّفكر فيما وقع ووجد أنّ سبب تعلقه السّابق بها إنّما كان لأنّه لم يتمكن من الوصول إليها و "لولا ذلك لقتل التّعوّد والاستسهال ذلك العشق المفرط."

أما المثال الثالث فتمثل في قصّة علاقته بجارية التقاها بعد زمن طويل ، ووجدها قد ازدادت جمالا: "قد جرى في وجهها ماء الشّبّاب وفاض و انساب..."³⁵ وفي هذه القصّة مرّ الكاتب بمحنة صعبة تمثلت في اضطراره إلى التّوم في بيت الجارية والصّراع النّفسي الذي عاشه بين انجذابه إليها وخوفه من الوقوع في المعصية، ولذلك قرّر بعد تلك المحنة أن يمتنع عن زيارة ذلك البيت مدى الحياة خوفاً على "لُبّه" أن "يزدهيه الاستحسان."³⁶

- الاهتمام برسم ملامح الشخصيات ووصفها ظاهرا أو باطنا وصفا موسوما بعاطفة الرّازي وعلاقته بتلك الشخصيات.

فكان أن برز في القصص العاطفية مُعجم مستعار من صور الغزل. فتضمّنت هذه القصص مقاطع وصفية مطوّلة تميزت بأسلوب فنيّ يتجاوز فيه الخطاب وظيفته التّبليغيّة ليرتقي إلى الوظيفة الفنّيّة الأدبيّة. فنراه - بالإضافة إلى وصف جمال حبيباته - يركّز على مظاهر التّغيّر و التّحول بفعل الزّمن.³⁷

فضلا عن توسعه في وصف باطن الشخصيات ومشاعرها وخاصة مشاعره باعتباره الشخصية المحورية في القصة فنراه في قصته مع حبيبة صباه يدقق المعطيات المتعلقة بها فحدد عمرها (ستة عشر عاما) ووصفها وصفا مطوّلا شكلا ومضمونا ("وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها و خفارتها ..) مسبلة الستر فقيدة الدام قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الخفر..³⁸)

ومن الجلي هنا أنه لم يكتف بتعريف الشخصية ودورها بل وسع دائرة الخطاب المتعلق بها معتمدا لغة أدبية ومسالك في الوصف وظف فيها كل الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية.

ووصف مشاعره حين التقاها بعد فراقهما بسنوات قائلا: " فقد أثارت وجدا دفينا وحركت ساكنا وذكرتني عهدا قديما وحبّا تليدا .. و أيّاما قد ذهبت وأثارا قد دثرت، وجددت أحزاني وهيجت بلابلي."³⁹

و يمكن أن نضيف إلى تدقيق الشخصيات وصف الفضاءات التي دارت بها الأحداث داخلية وخارجية فضلا عن تعدد المشاهد المؤثثة لعالم الحكاية.

إن تَصَخّم الخطاب على حساب الحكاية في هذه القصص اعتمد على المقاطع الوصفية بصفة خاصة ولكنه كذلك اكتسب وظيفته الأدبية من خلال الأبيات الشعرية التي كانت حاضرة في مقاطع القصص المروية وزادها ثراء أنها من تأليف البطل نفسه عمّق بها دلالات قصصه وألحقها بجنس السرد القصصي الغرامي وسننه في الأدب العربي القديم.

ما من شكّ في أنّ مثل هذه السّمات من شأنها تغليب القيمة الأدبيّة لهذه المقاطع وشحنها بقيمة تأثيريّة انفعاليّة نراها تطغى في جوانب أخرى من خطاب التّجربة الذاتية غير السرد الذاتي.

2.5. في أدبيّة الخطاب الوجداني:

صحيح أن خطاب السيرة الذاتية إذا كثُر فيه للخطاب الوجداني فذلك يعني رغبة الكاتب في كسب تعاطف المُتلقي والتأثير فيه. وهو ما يحقق جانباً تواصلياً هاماً في خطاب التجربة الذاتية، لكن هذا الخطاب يكتسي بالإضافة إلى طابعه التأثيري طابعاً أدبياً فنياً يتجاوز وظيفته العاطفية حين يحقق سُنناً أدبيةً بعينها تُكسبه جمالية خاصة تُحوّل السيرة الذاتية إلى مقام أساسي لتوليد نوع معيّن من أنواع الأدب ولعل من أبرز هذه الأنواع من الأدب:

• خطاب الحنين إلى الأوطان:

وقد ظهر في مواطن من الكتاب أبرز أمثله حديث الكاتب عن قرطبة بعد أن خرج منها، ووصفه لما أصابها من دمار وخراب بطريقة حاكي فيها مسالك الشعراء في الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار، وكان الكاتب على وعي تام و هو يكتب هذا المقطع - بأنه ينشئ أدباً نثريةً "طللياً" على غرار الأدب الشعري الطللي. وقد تجلّى ذلك خاصة في توظيفه للمعجم الطللي وتأمّل الديار والبكاء عليها في قوله مثلاً "وقد أمّحت رسوماتها وطُمت أعلامها وخفيت معاهدها وغيّرها البلى.." ⁴⁰

ويتأكد وعيه التام بالمحاكاة التي هو بصدها بتعليقه بعد ذلك على ما وصفه بقوله:

" والبيّن أبكى الشعراء على المعاهد، فأدرّوا على الرسوم الدموع، وسقوا الديار ماء الشوق وتذكروا ما قد سلف لهم فيها." ⁴¹

وتبدو محاكاته لهذا النمط من الوصف من خلال مقابلته بين أحوال قرطبة قبل خرابها و خاصة قصور الوزراء والحكام، ومنهم والده وعائلته، وما آلت إليه بعد ذلك وأعقب هذه المقابلة بخطاب مُطوّل عبّر فيه عن معاني الحنين والألم والشوق.

وقد برزت الوظيفة التخيلية جليّة في هذا المقطع نراها في خلق المُتكلّم لعوالم تصل الحلم بالحقيقة والواقع بالخيال، وتقف ذات الرّأوي بين العالمين مشدودة إلى الحلم هاربة من الواقع كمثل قوله: "وخيّل إلى بصري فناء تلك القصبّة بعد ما علمته من حسنّها و غضارتها (..) وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها وأوهمت سمعي صوت الصّدى و الهام عليّ، بعد حركة تلك الجماعات التي رُبيت بينهم فيها..." ⁴² وهي فقرة طويلة يصف فيها تداخل الصور والذكريات في ذهنه حتى كأنه يعيش فيها من جديد.

ولعلّ ميزة هذا الخطاب الدّاتي هنا هي المراوحة بين التجربة الواقعيّة والتجربة الوجدانية إذ الفضاء: "مُعطى إنساني وذلك في علاقته بالأشياء القائمة ضمنه أولاً وفي علاقته بالإنسان المتفاعل معه ومع أشياءه ثانياً." ⁴³

• خطاب الشكوى والبوح:

يكتسي هذا النمط من الخطاب طاقة تعبيرية وقوة أدبية إذ لم يقتصر الكاتب للتعبير عن مشاعره على لغة تؤدّي المعنى في حدّه الأدنى الضروري للإفهام بل اعتمد لغة شاعرية مكتنزة بالصور الأدبية الشبيهة بما نراه في

الشعر الوجداني من صور. وقد سبق أن ذكرنا بعض هذه النماذج التي لئن حققت وظيفة تأثيريّة عاطفية فإن صبغتها الأدبيّة قد فاقت طابعها التبليغيّ البحت على غرار خاتمة فقرة البكاء على أطلال قرطبة بقوله: "فأبكي عيني وأوجع قلبي وقرع صفاة كبدي وزاد في بلاء لبي".⁴⁴

6. خاتمة :

إنّ الحديث عن النّفس لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينحصر في وظيفته الإخباريّة التبليغيّة، رغم اضطلاعها بهذه الوظيفة وتعدّد وجوهها، وفي كتاب طوق الحمامة كان للموضوع أثر بارز في تقوية الجانب الأدبيّ الفني، لاسيما إذا كان الكاتب نفسه في علاقة مباشرة بهذا الموضوع، وقد لا يكون هذا المقال كافية للكشف عن كلّ أبعاد خطاب التجربة الذاتية في كتاب طوق الحمام بصفة خاصّة وفي أدب السّير - ذاتي بصفة عامّة إذ ما انفكّ الباحثون في مجال تحليل الخطاب واللّسانيّات بصفة عامّة يستكشفون المزيد من آفاق البحث وفروعه في هذا النّمط من الخطاب.

الهوامش

- 1- صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، نشر كليّة الآداب بمنوبة، 2001، ص 244
- 2- المرجع السابق ص 202
- 3- د.عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، والشركة العالميّة للنشر بالقاهرة، 1993، ص 2
- 4- المرجع السابق ص 235
- 5- المرجع السابق ص 242
- 6- مقدمة المحقق للكتاب، صلاح الدين القاسمي، طبعة الدار التونسية للنشر، الطبعة الخامسة 1993 ص 34
- 7- المرجع السابق ص 35
- 8- جلييلة طرطر، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي بتونس ومؤسسة سعيدان للنشر، ص 150
- 9- باب السُّلُوّ ص 205- 206
- 10- باب قبح المعصية ص ص 229- 230
- 11- باب الواشي ص 132
- 12- باب العتاب ص 153
- 13- باب من لا يحب إلا مع المطاولة ص 80
- 14- المرجع السابق ص 80
- 15- المرجع السابق ص 179
- 16- المرجع السابق ص 212
- 17- المرجع السابق ص 262
- 18- المرجع السابق ص 209
- 19- المرجع السابق ص 209
- 20- المرجع السابق ص 80
- 21- المرجع السابق ص 138

خطاب التجربة الذاتية في كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي (ق 5 هـ)

بين الوظيفة التواصليّة والوظيفة الأدبيّة/ نورة قريع

- 22- المرجع السابق ص 166
- 23- المرجع السابق ص 228
- 24- باب قبح المعصية ص 229
- 25- المرجع السابق ص 209
- 26- مقال صورة المرأة الأندلسية في كتاب طوق الحمامة. رقية بن خيرية، مجلة الناصرية 2015، مجلد 6، عدد 1 ص 259
- 27- المرجع السابق ص 208
- 28- باب من لا يحب الأ مع المطاولة ص ص 80-81
- 29- المرجع السابق ص 183
- 30- المتوكل أحمد ، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، منشورات عكاظ ، 1989 ص 51
- 31- المرجع السابق ص 132
- 32- المرجع السابق ص 163
- 33- المرجع السابق ص 179
- 34- المرجع السابق ص 208
- 35- المرجع السابق ص 229
- 36- المرجع السابق ص 230
- 37- انظر الشواهد السابق ذكرها عند الحديث عن هذه القصة
- 38- المرجع السابق ص 205
- 39- المرجع السابق ص 208
- 40- المرجع السابق ص 182
- 41- المرجع السابق ص 182
- 42- المرجع السابق ص 183
- 43- نجوى الرياحي قسنطيني، الوصف في الأدب العربي، نشر كلية الآداب بسوسة، ص 437
- 44- المرجع السابق ص 183 ، انظر كذلك أمثلة الوظيفة التأثيرية مما سبق من الصفحات

المصادر والمراجع

• المصادر:

1- ابن حزم الأندلس (ت 456 هـ)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق صلاح الدين القاسمي، الدار التونسية للنشر، الطبعة الخامسة 1993

• المراجع:

- 2- المتوكل (أحمد)، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، منشورات عكاظ، 1989
- 3- بن رمضان (صالح)، الرسائل الأدبية، نشر كلية الآداب بمنوبة، 2001
- 4- شرف (عبد العزيز) ، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، والشركة العالمية للنشر بالقاهرة، 1993
- 5- قسنطيني (نجوى الرياحي) ، الوصف في الرواية العربية الحديثة، نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. 2007
- 6- طرير (جليلة)، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي بتونس ومؤسسة سعيدان للنشر